المحنـــــة

محاولة لدراسة سننية . . (١)

الأخ د. خالص جلبي

بحث المحنـــة كقانـــون اجتماعي
يخضع لشروط ومقدمات ونتائج

١- ﴿ **الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَـيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت : ١-٣]

٢- « ... **لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ** ... » حديث صحيح (رياض الصالحين)

المحنة هي ظروف التحدي أمام الكائن الحي ، وحسن تكيفه مع هذا المنبه يقرر مصيره ، ولكن يجب أن يكون هذا المنبه مناسباً لتنشيط الإرادة ، فإذا زاد أو نقص اختل شرطه ، وبالتالي تفقد المحنة وظيفتها كعامل (منمي) وتتحول إلى عامل إما (ساحق) أو (غير محرك)

إنّ الكائن الحي من خلال السعي إلى غايته يتكامل وجوده ، وفي جو السعي هذا ينشأ الصراع مـــع الظـــروف المحيطة به ، وعلى قدر نجاحه في التغلب على ظروف الصراع هذه لحسابه يكتب مصيره إلى المـــستقبل . ذلـــك أن الصراع يبلور شخصيته عن العالم المحيط به ، ويعطيه تماسكه الداخلي ، وهذا القانون تخضع له الحياة في مجموعها العام .

يجب أن نقرر شيئاً فهناك فرق ما بين المحنة والتحطيم ، ما بين الابتلاء والانسحاق ، فالله ﷻ يبتلي عباده المؤمنين فأشد الناس ابتلاءً هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل كما جاء في الحديث ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه فإن وجد في دينه صلابة زيد في بلائه ، وكان الرجل من قبلكم يؤخذ فيحفر له في الأرض حفرة ، ثم يؤتى بالمنشار فيجعل على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه .

وهذا الابتلاء هو تمحيص للنفوس ، والنشاط الذي يُمارس ، ونوع من اليقظة أو الإيقاظ والصحو كي يحـــدث استنفار كامل للعضوية وهي تواجه التحدي ، وبالتالي السير على وعي في منهاج النظر والحركة . والابتلاء حينمـــا

يأتي في موضعه الطبيعي يصبح تنمية للعمل ، وأما حين يختل شرطه يصبح سحقاً وتحطيماً للعمل ، ولذا يجب الانتباه والتفريق بحذر بالغ تكاليف خطأ ، وبين صعوبات مواجهة عمل .

والفرق كبير بين التنمية والتنحية ، بين تنمية العمل الإسلاميّ في الساحة ، وبين تنحيته ليطارد وخط العمل في الشكل الأول صحيح ودلالته طبيعية لا تخيف ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [المؤمنون : ٢٢]

فهذا النوع يزيد الإيمان ويرقي المواهب والإمكانات ، أما الشكل الثاني من المحنة فهو يطحن الأشخاص والدعوة ويهرس العقيدة وأصحابها !! ..

وهو على كل حال نصر للمؤمنين وشهادة ولكن الشيء الذي يجب أن يؤكد عليه هو أن خط العمل حينما يستيقن من صحة ما يمارسه فإنه يواجه المحنة بالصبر والتوازن أمام وقعها ، ولكن عندما يكون هناك (احتمال الخطأ) فيواجه الموضوع بالصبر وإعادة النظر في سير الحركة ، والنظر في إمكانيات الأخطاء وجرد الحسابات ، وبالتالي تعديل المنهج أو الأسلوب في العمل حتى يتلافى الخطأ ، وليس التشنج في المواجهة والانتقال بالنفسية من مرحلة أو مستوى العمل الفكري إلى أعمال الثأر والانتقام من (نظام) بعينه ، فليست هناك لدينا (أحقاد) مع أشخاص بعينهم وكل من خرج عن النهج الإسلاميّ فهو خارج لا أكثر ، وهكذا فإننا ننسى في غمرة الخطأ مواجهته وتصحيحه إلى التعلق بالنار من شخص أو نظام بعينه ، حتى أخشى أن تنقلب إلى الموقف الذي يفرضه (المنعكس الشرطي) كما يحدث عندما يهاجم الثور الخرقة الحمراء التي يلوح بها المصارع

ولنتأمل في حوار إبراهيم مع قومه وهو يعلن عداوته ليس لهم وإنما لما يعبدون ، هو لا يحمل في قلبه أضغاناً وأحقاداً عليهم لأنه قلبه سليم ﴿ **إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الصافات : ٨٤] إنما هو يعادي تلك المعبودات والأفكار الباطلة : ﴿ **قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء : ٧٤-٧٥] .

لا بد أن نؤكد على فكرة أولى وهي :

آ- لا بد من المحنة : ولا مفر منها ..

إنه لا بد من المحنة ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت : ١-٢]

إننا نراه كقانون نفسي اجتماعي متكرر دوما :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤]

وهذا الشيء لا خلاف فيه سواء من خلال جو النصوص ، أو بين أي مجموعة من الناس تمارس أسـلوباً نـضالياً لتحقيق أهدافها .

ولكن الشيء الذي يجب لفت النظر إليه هو فكرة توتر المحنة ..

ب- توتر المحنة : (ضمن الشروط الحدية)

هناك (مجال) تتحرك فيه (المحنة) ضمن العالم النفسي الاجتماعي إذا وقعت خلاله كـان مردودهـا إيجابيـاً وإذا تجاوزت أو قصرت لم تعط المردود الملائم ، فهي في الحالة الأولى (محطمة) وفي الثانية (غير محركة) .

مثال طبي : إنّ ولادة الإنسان تتم في محنة يعبر عنها المخاض أجلى تعبير من خلال تقلص الرحم الـذي يـسبب آلام الأم .

حتى يمكن للإنسان أن تتم ولادته فلا بد من محنة في صورة (تقلصات) الرحم المؤلمة فالرحم يتقلص ولولا تقلصه لما أمكن للجنين أن يخرج ، إذن فلا بد من التقلص أو بكلمة فكرية مرادفة لا بد من (محنة) . وهنا تواجهنا حالات :

حالة أولى : المحنة دون العتبة المطلوبة :

إذا لم يتقلص الرحم فهذا يعني عطالة الرحم (Atonie) وهذه الحالات لا تحرك المخاض مطلقاً ، وهنـا نـذكر الإخوة القراء أن نقل هذا المصطلح إلى الجو الفكري يعني أن أي حركة تستهدف تغيير الواقع إذا عاشـت مرحلـة (عطالة) أي (الخلو من جو الصراع) فإنه لا يمكن أن تخرج للحياة أي أن تصبح كياناً اجتماعياً متحركاً ، أو بكلمـة أخرى أنها قد لا ترى النور مطلقاً مهما أعطت لنفسها من (الشهادات) ..

والحركات التي تمارس نضالاً وتبغي التغيير الاجتماعي والسياسي تكسب خلودها بقدر ما تقدم من تـضحيات على الطريق وصدق سيد قطب حينما قال : (إنّ كلماتنا تبقى عرائس من شمع فإذا متنا في سبيلها دبت فيها الحياة) .

حالة ثانية : توتر المحنة تجاوز العتبة المطلوبة

كما أن الوضع المقابل وارد أيضاً وهو اشتداد تقلصات الرحم بحيث لا تحصل فترات راحة بين التقلص والآخر ، فإذا تعاقبت التقلصات أصبح الرحم في وضع تكزز وهذا أيضاً لا يؤهب لخروج الجنين السوي إلى الحياة وقد يقضي عليه ، كما أن استمرار التقلص بدون راحة على الإطلاق يعني تقلصاً انقبض دفعة واحدة أو ما يـسمى (انقبـاض الرحم) وهذا يعني موت الجنين بانحباس مرور الدم إليه عبر المشيمة ، حقاً إنّ قوانين الحياة لها صرامة !! ..

وهذا يعني فيما إذا نقل إلى الوسط الاجتماعي تعاقب المحن يعني (موت الحركة) لأن توتر المحنــة قفــز (المجــال الحيوي)

إنّ المحنة يجب أن تكون كمنبه مناسب أو شرط تحدي (ملائم) فإن هذا يخلق الوضع النفسي المناســب للحركــة وهنا سوف أورد قانوناً نفسيا ..

– للبحث صلة –